الباب الأول

مع القرآن الكريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم علىٰ المبعوث رحمة للعالمين ، ﷺ ، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين ، وصحابته الكرام أجمعين ، ومن سار علىٰ هذا الدرب إلىٰ يوم الدين ، وبعد:

فقد أرسل الله رسوله بمهمة تفصيل وتبيان ما أُجمل في القرآن الكريم ، كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وجاء في القرآن الكريم توجيهات دقيقة تبين مدىٰ ارتباط القرآن الكريم بالسنّة النبوية ، وذلك من خلال ربط طاعة الله بطاعة رسوله ﷺ ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[3].

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النحل: ٦٤.

(٣) النساء: ٨٠.

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

لكن الطاعة لا تكون باللسان فحسب، إنما يتعدىٰ ذلك إلىٰ كل جزئيات حركة الإنسان، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[2].

وهكذا، فمن طاعة رسول الله ﷺ تتبّع ما تحدّث به عن القرآن، أي ما فسره الرسول من القرآن، ذلك لأن أفضل ما يفسّر القرآن القرآن ذاته، ثم ما يفسره رسول الله.

وهذا التفسير النبوي ليس إلا وحياً من الله، وكما قال العلماء: القرآن وحي مجمل والسنة وحيٌ مفصّل، ولا غنىٰ لأحدهما عن الآخر:

وحيٌ بتفصيلٍ ووحي مجمل تفسيره ذاك وحيٌ ثانِ

وعلى هذا المنوال عاش الرعيل الأول من هذه الأمة مع القرآن وتفسير رسول الله لما أُبهم وأُجمل وأُشكل منه، ولم يُعرف عن أحد منهم تفسيره بالرأي، ولم يؤثر عن أحدهم أن له تفسيراً للقرآن الكريم.

ودار الزمن دورته، وإذا بين أيدي المسلمين طائفة كبيرة من كتب التفاسير، زاد بعضها عن عشرات المجلدات، ويتساءل العاقل: كيف حدث هذا التضخّم؟ وماذا حُشيت هذه المجلدات؟!

صحيح أن بعضها ـ وهي القلة ـ يحوي زبدة الأحكام والقضايا المهمة، لكن الكثير منها يحوي الغث والسمين، ودخلت الإسرائيليات والموضوعات والبدع فيها، واختلط الحابل بالنابل، حتىٰ ضاع الكلم الطيب في هذا الزحام.

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) النساء: ٦٥.

والطامة الكبرىٰ أن الأمة ابتُليت بمن تصدّى لتفسير الكتاب العزيز ، وهو لا يرقىٰ إلىٰ فهم مقطوعة من النثر أو الشعر العربي ، وفسروا القرآن بعيداً عن السنة ، فكان ما كان ، ورحم الله القائل:

تصـدّر للتـأليـف كـل مهـوَّس جهول يسمىٰ بالفقيه المدرّس
وحـقّ لأهـل العلـم أن يتمثلـوا ببيت قديمٍ شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتىٰ بدا من هزالها كُلاها وحتىٰ استامها كل مفلس

لكن العودة إلىٰ سنة رسول الله لنلتقط منها ما صحّ عن رسول الله في مجال تفسير كتاب الله هو الضابط لكل ما يدور في هذا الحقل ، وكان هذا الكتاب المتواضع ، سائلاً الله القبول والعفو ، إنه هو السميع المجيب.

* * *